المجتمع الكُردي

في المنظور الإستشراقي

الدكتور بـــــدرخـــان السنـــــدي
أستاذ في جامعة بغداد سابقاً

دار ئاراس للطباعة والنشر

السلسلة الثقافية

*

صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين

رئيس التحرير: بدران أحمد حبيب

***

العنوان: دار ئاراس للطباعة والنشر - حي ŠeHŪ - اربيل - كوردستان العراق
ص. ب: رقم ١
www.araspublisher.com

الإهـداء

- الى كل من أطلق كلمـة نبل طيبـة وعـادلة في حق امـة من الأمم وهو ليس منها...
- الى كل كـردي ذاد عن حـقـوق الأمـة الكُردية واسـتـبسـل من اجل ان يرسم مستقبلها المشروع... شهداء الكُرد
- الى كل من قال كلمـة حق في حق عدوه وان كانت إطراءً... وكلمـة حق في حق صديقه وان كانت جفاءً...

اسم الكتاب: المجتمع الكُردي في المنظور الإستشراقي
تأليف: الدكتور بـدرخـان السنـدي
من منشورات ئاراس رقم: ١١٢
التصحيح والتصميم: شاخوان كركوكي
الغلاف: شكار عفان النقشبندي
الإشراف على الطبع: عبدالرحمن محمود
الطبعة الأولى: مطبعة وزارة التربية - اربيل ٢٠٠٢
عدد النسخ: ١٦٠٠ نسخة
رقم الإيداع في مكتبة المديرية العامة للثقافة والفنون في اربيل ٢٠٠٢/٢٨

المقدمـــة

يعيش الممثلون على خشبة المسرح الرواية باحداثها لكنهم لايشاهدونها بالكم أو الكيف الذي يشاهده النظارة، إذ ان مشاهدة الحدث على وفق نظرية الكشتالت وهي النظرية الكلية الالمانية في علم النفس اقدر على مساعدة الفرد على التكوين المعرفي القائم على الاستيعاب الموقفي الكلي، وهكذا فالنظارة قد يرون ما لايراه الممثلون انفسهم، وقد يستكنه المشاهد الخارجي للموقف ابعاداً إنطباعية ليس بالضروري ان يكون الممثل ذاته قد توصل اليها... وهكذا الغريب الذي يدلف داراً فيلحظ فيها من خواص مادية ومعنوية ما لايلحظه اصحاب الدار تماماً بغض النظر عن الملاحظة ما إذا كانت ايجابية أم سلبية، مقبولة أم غير مقبولة، فالمرء مجبول على اعطاء مبررات شعورية مباشرة وغير مباشرة لأنماط السلوك الصادرة عنه ولشكل الواقع الذي هو فيه وغالباً يجعل من الايجاب منبعثاً عن ذاته ومن السلب واقعاً عليه من خارج ذاته... ان هذه الحالة قد تجعل من المنظور الخارجي اقدر على سبر اغوار واقع ظاهرة ما من المنظور الداخلي المنبعث عن مصدر الظاهرة، وما تقدمنا به من مثال على الغريب الذي دلف داراً ينسحب على الزائر الذي يزور بلداً أو منطقة ويعايش مجتمعاً برمته أو بجزئه يختلف تمام الإختلاف عن مجتمعه وعن صيغ الحياة في بلده الذي قدم منه مما يتيح له رؤى جديدة ملفتة للانتباه ومجلبة للاهتمام تبدو له ومن ثم للقاريء إنطباعاته ومذكراته شيقة، فهي تتضمن بالضرورة مقارنة مستترة لان الغريب في منظور الغريب هو ما حمل غرابة لاتتساوق مع مألوف حياته وما تعرفه في بيئته التي اتى منها أو انه شعر بغرابة ان يرى في البلد الذي يزوره ما في بلده خارج نطاق افتراضاته المسبقة عن البلد والمجتمع الذي يزوره فعلى سبيل المثال... لقد (اصطدم) العديد من الرحالة بمكانة المرأة لدى الكُرد على خلاف مفاهيمهم المسبقة عن موقع المرأة الإجتماعي في الشرق. وامثلة أخرى كثيرة لا نود ان نسبق الحديث عنها إذ ستأتي في اوانها...

اذن، ومما تقدم، سنحاول في هذا الكتاب ان نستدل على الإنطباعات التي كونها زوار كُردستان والمعنيون بها بشكل أو اخر، ولقد فرض المتاح من المصادر على المؤلف الاطار الزمني للكتاب، فبات معنياً بماكتب وبما سجل عن الكُرد ابان القرنين التاسع عشر والعشرين وهذا لايعني مئتي عام على وجه التحديد بل كان البدء في عشرينيات القرن التاسع عشر والانتهاء في العقد السابع من القرن العشرين تقريباً وبذلك يمكن ان نقول، ان الكتاب حاول

ان يعنى بمئة وخمسين عاماً من الإنطباعات المسجلة عن الكُرد ضمن المتاح من المصادر كما اشرنا. وهؤلاء الكتاب الذين استقينا مادة كتابنا هذا منهم، هم الرحالة والمتخصصون الإستشراقيون (الأكاديميون) والضباط والحكام السياسيون الذين عملوا في كُردستان وتعاملوا وتعايشوا مع الكُرد.

رب قائل يقول، وهل كل هؤلاء يعدون من المستشرقين؟ حتى ذهب الحال بالمؤلف إلى استخلاص عنوان للكتاب يدل على ان المحتوى يقع ضمن الدائرة الإستشراقية في التصنيف المعرفي؟ نقول بكل ثقة نعم. ولاسيما من الناحية الاجرائية الواقعية، فقد لاحظ المؤلف في كل كاتب اعتمدت إنطباعاته في هذا الكتاب هو اما من المستشرقين المتخصصين واصدر دراسة إستشراقية في الكُرد مثل مينورسكي وباسيل نيكيتين وتوما بوا وغيرهم واما ان يكون مبعوثاً لغاية دينية كأن يكون مبشراً أو راعياً لشؤون اقلية دينية أو مذهبية في المنطقة مثل ويكرام، أو ان يكون حاكماً سياسياً يمثل بلاده ويؤمن مصالحها سواء من خلال دراسات استقصائية قبل الحرب العالمية الأولى أو من خلال عمليات فعلية وممارسة حقيقية جاءت من فرض وجودهم في المنطقة فضلاً عن ممارساتهم العسكرية.

ان ما تقدم لايعني البتة اننا نقف أمام شريحتين مختلفتين من الكتّاب في معايير هذا الكتاب، فاما الشريحة الأولى فمن كان على شاكلة مينورسكي وباسيل نيكيتين وتوما بوا وغيرهم فهؤلاء لم يكتبوا ما كتبوه تنظيرياً في مكاتبهم بل (إغتنموا) فرصة وجودهم في كُردستان وما اتاحت لهم وظائفهم الرسمية وهم يمثلون بلادهم في دول أخرى، من قدرة على التنقل وجمع المعلومات ميدانياً والإحتكاك والتعايش مع الكُرد ان في تركيا أو إيران أو في عراق متجزء بين الدولتين وبذلك فهم لايختلفون من حيث الأساس عن الشريحة الثانية (افتراضاً) أي الرحالة والحكام والضباط السياسيين الأجانب لأن كلتا الشريحتين جاءتا المنطقة بعد اعداد إستشراقي سواء كان هذا الإعداد إعداداً جامعياً أم غير جامعي. وبذلك كان هؤلاء بغض النظر عن المهام التي جاءوا من اجلها وجابوا انحاء كُردستان لهم تصوراتهم المسبقة، نظرياً وليس ميدانياً، وعامة غير تفصيلية -غالباً- عن المنطقة، وتأتي مشاعر الغرابة التي اشرنا اليها آنفاً من تباين المواقف العملية التي يخبرها الأجنبي عن الخبرات النظرية المزود بها مسبقاً أو عن توقعاته قبل وصول المنطقة.

ان الغايات التي جاء من أجلها هؤلاء على إختلاف أنواعها لم تُلغِ الحس العالي عندهم لتلقي واستكشاف الكثير من المعلومات الميدانية إجتماعية ولغوية ومحاولة منهم لتوثيقها وتدوينها، فقد دأبوا على تدوين مذكراتهم ويومياتهم وقد نجد من أحاط مذكراته بالهوامش والتعليقات والتحليلات هنا وهناك. ان تلك الدراسات وكذلك المذكرات والمدونات التي

سجلت باقلام الرحالة والمستشرقين والضباط السياسيين هي في الحقيقة نتاجات ميدانية ذات جذور نظرية في مجال الإستشراق الا ان التعامل الميداني جعل بالامكان ظهور دراسات متخصصة بالكُرد (كوردولوجي) لا بل اتسمت هذه النتاجات بالدقة والتخصص الضيق مما يمنح هذه الدراسات عمقاً أكاديمياً فهذا درس لهجة مدينة العمادية وذاك درس لهجة مدينة السليمانية واخر درس الواقع الإجتماعي والاقتصادي لمدينة راوندوز وتلك درست أوضاع قرية طوبزاوه... واخر وضع قاموساً كردياً وغيره إهتم بقواعد اللغة دون الأدب بينما الاخر تخصص في موضوع الاقطاع في كُردستان... الخ.

ولو حاولنا دراسة الخلفية الثقافية والوظيفية لهؤلاء ممن كتبوا في الـ(كوردولوجي) بشكل عام أو ممن كتبوا بشكل تخصصي لوجدنا فيهم القنصل الممثل لبلاده والضابط السياسي الذي جاء ليحكم المدينة والقسيس الذي جاء ليبشر بالمسيحية أو يرعى شؤوناً طائفية والأكاديمي الذي جاء ليجري بحثاً علمياً عن جانب من جوانب الحياة الكُردية... وكل هؤلاء ملكوا خلفية إستشراقية عامة ونظرية مسبقة عن المنطقة وبالتالي لايمكن تجريد هؤلاء من الصفة الإستشراقية، وهكذا لم يكن لنا الا وان نرى من عملنا هذا جهداً يقع في المجال الإستشراقي.

لقد اعتمد المؤلف الكتب ذات العلاقة بمادته، الأجنبية غير المترجمة والمترجمة، ولاشك ان عدداً من الكتب المترجمة قد اتيح لبعض القراء الاطلاع عليها في حين نجد الكتب غير المترجمة تكاد ان تكون صعبة المنال ولولا مكتبة المتحف العراقي في بغداد لما استطعنا العثور على بعضها.

إن من حق القاريء ان يسألنا عن الهدف المتوخى من هذا الكتاب. ونرغب الإجابة على هذا السؤال في مرحلتين الأولى هي (الغاية: Target) والثانية هي (الأهداف: Objectives) فأمّا الغاية فهي عادة تتسم بالسعة والشمولية الوظيفية ذات العلاقة باحدى مصالح الأمة أو فلسفتها الإجتماعية أو بواحدة أو أكثر من قيمها التاريخية أو الحاضرة، وهكذا فان (الغاية) في ضوء ما تقدم هي اتاحة الفرصة لقاريء العربية انى كان في البلاد العربية أو خارجها ان يطلع ويتعرف طبيعة المجتمع الكُردي من وجهة نظر غير كردية. لا من باب (الدعاية) فالشعوب ليست بحاجة إلى (دعاية) ولكن إماطة اللثام عن واقع حياة مجتمع كامل في خصائصه التي تعطيه هويته المتميزة المستقلة امر اصبح اليوم من الامور الواجبة ذات الضرورة العالية في زمن اتسعت به القضية الكُردية أكثر من أي زمان اخر... فمن هو هذا (المجتمع) ولا اقول الشعب هنا متقصداً لان الكتاب معني بالتحري عن الخصائص الإجتماعية وليس العرق، طراز الحياة الكُردية وليس الوجود الكمي للكرد. والحقيقة نحن ننظر إلى الشعب الكُردي بصفته مجتمعاً كردياً وندرك تماماً ان المصطلح الثاني اليوم هو الاخطر وهو الاضمن

لكينونة الشعب لان مصطلح المجتمع الكُردي يعني الشعب الكُردي زائداً كل خصائصه التي تمنحه هويته، وهذه الخصائص هي الضمانة لاستمرار بقاء أي شعب بالرغم من التجزئة بعوامل سياسية وهي السلاح الأكثر اهمية في عمليات التصدي لمحاولات صهر القوميات واذابتها في قومية ثانية، فلو تتبعنا سياسة التتريك مثلاً بازاء الشعب الكُردي لوجدناها تحاول النيل من الخصائص الإجتماعية للكرد ومحاولة احلال خصائص أخرى منه لتغيير هويته فحاولوا النيل من لغة الكُرد ومن زيهم ومن غنائهم ومن رقصهم ومن عاداتهم وتقاليدهم ووضعوها في عداد الممنوعات لكن رسوخ هذه الخصائص الإجتماعية جعلت الكُرد في حالة تصدٍ دائم حتى عندما حاول الترك تهجير مجاميع كردية كبيرة من كُردستان تركيا (جنوب شرق) تركيا إلى اقاصي (الشمال الغربي) لتركيا حيث لا كرد هناك اكتشف الترك بعد سنوات انهم لم يفعلوا شيئاً سوى انهم اسسوا نواة لـ(كُردستان) أخرى جديدة في شمال غرب تركيا مع استمرار بقاء كُردستان في جنوب شرق تركيا.

اذن، فالغاية من الكتاب رسم ملامح الأمة الكُردية إجتماعياً وبأقلام أجنبية لايتوقع المؤلف ان تكون قد تعاطفت مع الكُرد قبل معايشتها للكرد لا بل قد جاء بعضهم لكبح جماح الشعور القومي عندهم ورسم خارطة تمزيقهم سياسياً في معاهدة قبل الحرب العالمية الأولى أو بعدها، بعضها كان سرياً وبعضها الاخر كان علنياً فمن سايكس بيكو إلى معاهدة لوزان ومن ثم حلف بغداد، مئات من التقارير رفعت واجتهدت في كيفية (شنق) القضية الكُردية.

بعد ان عرضنا (الغاية) من الكتاب، نجد لزاماً ان نعرض (الأهداف) ايضاً وكما ذكرنا ونحن في معرض الإجابة عن: لِمَ هذا الكتاب؟

الحقيقة يمكن ان نلخص الأهداف المحددة "Specific Objectives" من هذا الكتاب بعد ان عرضنا الغاية الاوسع "The Wide Target" بما يأتي:

١- لقد كتب الرحالة والمستشرقون عن مختلف مناحي الحياة في المجتمع الكُردي، فلو اخذنا أي موضوع من موضوعات هذا الكتاب لوجدناه موزعاً بنسب وصيغ متباينة في مدى تماثلها وتباينها وهنا، أي في كتابنا هذا سيجد القاريء أننا حاولنا جمع وجهات النظر للموضوع الواحد والموزعة في عدد كبير من الكتب، في فصل واحد وبذلك نكون قد اتحنا للقاريء ان يطلع في قراءة أي فصل من فصول هذا الكتاب على مجمل الآراء والفكر ازاء الموضوع الواحد، فعلى سبيل المثال تكاد معظم المصادر قد عنت بمسألة (الزي) والقراء هنا على نوعين اما من لم يقرأ شيئاً عن الزي الكُردي البتة أو ممن قرأ في مصدر أو مصدرين عن الزي وقد تكون بين القراءة الأولى والثانية مدة طويلة لاتساعد القاريء على تكوين فكرة متكاملة عن الزي بينما سيجد هنا، أي في كتابنا هذا مجموعة كبيرة من

الإنطباعات عن الزي الكُردي المتأتية من مختلف المصادر مجتمعة في فصل واحد مما يتيح للقاريء ان يقرأ لعدد من المستشرقين موضوع الزي أو القبيلة أو العائلة أو صفات الكُرد... الخ من فصول الكتاب في آن واحدة.

٢- ان ما ذكرناه في (١) يعطي الفرصة لان يطلع القاريء على مختلف الإنطباعات الأجنبية عن المجتمع الكُردي في امكنة وازمنة مختلفة على مدار الحقبة التي بدأت في عشرينيات القرن التاسع عشر وانتهت في ستينيات القرن العشرين.

٣- لقد قام المؤلف بالتعليق ومحاولة تحليل المعلومة أو الموقف انى وجد الحاجة إلى ذلك فضلاً عن الإتجاه المقارن الذي يمكن ان يلمسه القاريء بوضوح، فتارة تعقد المقارنة بين رأي واخر أو إنطباع واخر وتارة بين مجتمعنا الكُردي والمجتمعات المحيطة به من اجل الحصول على صورة أكثر نقاوة ووضوحاً عن المجتمع الكُردي وتتحرك محاولات المؤلف سواء في التحليل أو التعليق أو المقارنة بين قطبي التأييد والتفنيد من وجهة نظره ومن خلال خبرته الشخصية.

٤- لقد حاول المؤلف ان لايكون ذاتياً في تصرفه مع المادة المتعامل معها، فاتى بالقرينة أو الاستشهاد بمصدر علمي أو الاشارة إلى واقع حال في عرض الإنطباعات عن المجتمع الكُردي كي لاتبقى اشارة المستشرق أو الرحالة أو الحاكم السياسي اشارة سائبة، قدر الامكان.

٥- ان التصنيف الحالي لفصول الكتاب يسهل على القاريء تكوين افكار منظمة عن المجتمع الكُردي، فقلة من المصادر المعنية بالكُرد والمتاحة قد انتظمت في فصول مستقلة وحتى عندما ينتظم البعض منها في فصول، فانها - أي الفصول - تجعلنا نستنتج ان المؤلف قد فرضت عليه رحلته نوع الفصول التي تناولها، هذا في حالة الكتابة المقصودة عن المجتمع الكُردي اما في المذكرات فلا نجد تصنيفاً على أساس إجتماعي علمي لان طبيعة المذكرات تقتضي تسجيل المعلومة في زمنها ولذا لا نستغرب من ان نقرأ ما يخص (القبيلة الكُردية) في صفحات مختلفة ومتباعدة من مذكرات ريج أو سون أو هاملتون الخ.

هنا لابد من الاشارة إلى اغفالنا لموضوع (أصل الكُرد) ذلك اننا نملك وجهة نظر في هذا الموضوع مفادها أن الموضوع العرقي للكُرد حمل أكثر مما يحتمل فهذا يعيد الكُرد إلى الجن وذاك يجعل منهم قبائل عربية (كُردت) إلى الجبال وآخر يمنحهم الجنسية الإيرانية.

بإختصار شديد الشعب الكُردي حقيقة موجودة لغة، وعادات، وملامح وهذه العناصر الثلاثة تمت بشكل جازم إلى العرق الآري وما سوى ذلك يقع ضمن الإجتهادات المشبوهة التي

لاتفضي إلى نتيجة. وآمل ان لايحسب القاريء ان دوامة البحث في العرق مسألة تخص الكُرد وحدهم، بل هي -أي الدوامة- يمكن ان تكون مع أي قوم لو أردنا تقصي أصله ومنبعه لكن الواقع السياسي ساهم في اضفاء غموض متقصد على أصل الكُرد.

ان مسألة (نشوء الأمم) مسألة شائكة وتقبل التأويل الواسع، وفي اعتقادنا ليس هناك بداية محدودة لنشأة أي أمة من الأمم انما هي صيرورة تاريخية تفعل فيها عوامل عدة لتخرجها كواقع حال، هذا الواقع بدوره خاضع للتغير بإتجاه التطور أو التقهقر طبقاً للعوامل المحيطة من جهة وما في الأمة من قدرة على التصدي من أجل البقاء وتحدي الإندثار أو الإلتواء من جهة أخرى. اما التطور أو التقهقر اللذين اشرنا اليهما تواً فهما (حالة الأمة) وليسا كينونتها. فالكُرد امة كانت وكائنة، تصدت وتحدت كل عوامل الضد فابقت على نفسها، اما ان تكون هذه الأمة اليوم على غير ما يهوى ابناؤها فهذه (حالة) بالرغم من سلبيتها تحمل خميرة ايجابية، لان الشعور بالحالة هو تطور بحد ذاته لا بل هو خط الشروع في التطور لاي امة قررت ان تنهض ولابد من الاشارة إلى ان عنوان كتابنا (المجتمع الكُردي في المنظور الإستشراقي) يعفينا في حدوده من الغوص في مسألة الاصل والعرق والتي تمتد بعيداً في حقل التاريخ وليس الانثروبولوجيا الإجتماعية (Socio Anthropology) ولابد قبل ان ننهي مقدمتنا ذكر بعض التوضيحات الاجرائية لهذا الكتاب.

ان الاعتماد على تلخيص النص مرة أو حذف ما لا علاقة له بطبيعة الفصل من النصوص مرة أخرى جعلنا لانجد حاجة إلى التنصيص بالأقواس بل إكتفينا بالإشارة إلى المصدر ورقم الصفحة أنّى جاء الاقتباس وبذلك يمكن للقاريء العودة إلى المصدر وقتما يشاء وبامكانه التمييز بين الاقتباس وتعليقنا الذي يرد بعد الاشارة إلى صفحة المصدر كما وحاولنا قدر الامكان ان نذكر القاريء بالحقبة الزمنية التي عايش فيها صاحب النص المجتمع الكُردي لان البعد الزمني له مدلوله العلمي في مثل هذه الدراسة. لقد حاول المؤلف في بعض النصوص المقتبسة من كتب مترجمة استبدال مفردة بأخرى عند بعض المترجمين ممن أولَوا اهتماماً كبيراً بالتنميق والزخرفة اللغوية، وصولاً منا إلى وضع النص بشكل أكثر مقروئية: Readability لاتاحة الاستيعاب الاوسع لمضمون النص دون مفردات نادرة أو عويصة.

ولقد إلتجأ المؤلف إلى استبدال صيغة (الأنا) لصاحب النص إلى صيغة (الهو) في كثير من الاقتباسات لكي يتسق ما ذكره صاحب النص مع تعليق المؤلف ومداخلاته وبالطبع تبقى حقوق صاحب النص محفوظة من خلال الاشارة إلى رقم الصفحة واسمه في المتن كما ذكرنا.

ولابد من الاشارة إلى اننا اعتمدنا الإملاء المقر في المجمع العلمي العراقي قدر الامكان، ونأمل ان لايفاجأ القاريء ان وجد (مئة) قد احتلت مكان (مائة) و(أيّ) مكان (ايّة) وتعرف

فلان مكان تعرف على فلان... الخ.

ان بعض التواريخ الواردة بين قوسين بعد ذكر اسم الرحالة أو المستشرق تعني تاريخ الرحلة أو الزيارة أو كتابة المذكرات وبعضها يعني تاريخ طبع الكتاب، ولقد آثرنا التاريخ الأول في المتن انى استطعنا لان تاريخ الطبع لابد من ذكره في قائمة المراجع في آخر الكتاب فقد وجدنا بعض الكتب لاتذكر تاريخ وجود الكاتب في كُردستان للاسف.

كلمة أخيرة... ما من كمال في عمل لاسيما في مثل هذا الحقل الذي نشعر بانه يحمل أكثر من عامل من عوامل الصعوبة لكن الامل يحدونا في ان نجد من جهدنا هذا فرصة لاضاءة شمعة متواضعة في زاوية من زوايا حياة امة يشار اليها بالشجاعة والفروسية وإمتلاك كل وسائل ومقومات الحرب لكنها اثرت عبر التاريخ ان تقف موقف المدافع عن نفسها وما اتخذت من غزو أمة أخرى أو شعب آخر سبيلاً للعيش أو طريقاً للتقدم، وربما كان هذا موضع الخلل وسبب الداء الذي جعلها، أي امة الكُرد، مازالت ترنو إلى كامل حريتها في تقرير مصيرها... والخلل على ما نعتقد ليس في الأمة بذاتها بل في ماكنة التاريخ ومصنع الميزان وهذا يقودنا إلى موضوع خارج حدود مؤلفنا هذا.

نأمل ان نكون قد قدمنا المفيد والله نسأل التوفيق.

المؤلف

صفـــات الكـــرد

هذا الفصل معني بإنطباعات المستشرقين والرحالة حول أبرز الصفات والسجايا في المجتمع الكُردي التي جلبت إنتباههم وسجلت في مذكراتهم، كما سيجد القاريء فان هذه الصفات لم يلحظها مستشرق واحد أو رحالة دون غيره، فهي أي هذه الإنطباعات شهادة سوسيولوجية لرجال امعنوا النظر في الخصائص الكُردية من خارج المجتمع الكُردي.

ورب سائل يسأل، الم يجد هؤلاء المستشرقون والرحالة خصائص سيئة في المجتمع الكُردي؟ ألا يعد هذا الفصل من الكتاب متحيزاً للكرد؟

السؤال وارد ومشروع من وجهة نظرنا، لكننا نحن لم نغفل ما دونه المستشرقون في مذكراتهم من حالات وقضايا إجتماعية اوردناها في فصولها الخاصة بها من هذا الكتاب.

فنحن على سبيل المثال لا نقول لايوجد في المجتمع الكُردي مجرم أو لاتوجد جريمة أو جرائم ولم ننزه الكُرد عن السرقة في حياتهم الإجتماعية فهي موجودة لديهم مثلما هي موجودة في مجتمعات الدنيا كلها ولكننا اشرنا إلى هذا في ثنايا الكتاب فقد اشرنا إلى السرقة وكذلك تطرقنا إلى الاقطاع والابتزاز القبلي والزواج بالخطف وزواج الأطفال.

اننا إذ نسجل الإنطباعات الايجابية في هذا الفصل فهي لاتلغي حالات سلبية أو مشكلات قائمة هنا وهناك ولكن عندما يكون الحديث عن صفات شعب فان الجانب الايجابي والغالب هو الذي يمثل هوية مثل هذا الفصل من الكتاب دون ان نتخلى عن أي جانب سلبي مشخص لكن في موضوعه المناسب من فصول الكتاب.

وللحقيقة والتاريخ نقول ان المؤلف حاول ان يستقرئ ما امكن في العراق من كتب ومصادر متاحة حول هذا الموضوع واستطاع ان يستنتج حقيقة واقعة، هي ان الخط البياني لإنطباعات المستشرقين والرحالة عن الكُرد خط في صالح الكُرد، فالإعجاب بالكُرد مسألة تكاد تكون ملازمة للمستشرقين والرحالة ومن هنا نود ان نؤكد اننا في هذا الفصل سجلنا تلك الإنطباعات التي تكاد ان تكون (إجماعاً) ونجد في هذا فرصة لتعريف القراء على خصائص مجتمع اجتمعت عليه صلابة الزمن مع صلابة المكان فعركه التاريخ.

لعل من أبرز صفات هذا الشعب التي له فيها مفخرة وإعتزاز انه لم يغز شعباً ولم يرغب بذلك ولاتعوزه إلى ذلك قوة أو بسالة ولكنه ما رغب يوماً الا ان يكون مدافعاً عن ماله وعرضه... والمستقبل الذي سيضحى تاريخاً من بعد، ربما سينصف هذا المجتمع النبيل...

الثقة والصدق

الكُردي يثق بالآخرين ويتوسم فيهم الصدق لانه صادق، مع نفسه، ومن هنا يأتي إجماع كل من عايش الكُرد ، على الثقة بالإنسان الكُردي فهو مؤتمن.

يقول باسيل نيكيتين (١٩١٥-١٩١٨) عن احد الرحالة الفرنسيين ممن زار كُردستان وهو بايندر عام ١٨٨٧ ، على الرغم من بداوة الأكراد ، فانهم يتمتعون بمشاعر الكرامة، ويتقيدون كلياً بعهودهم، فاذا ما وعدك احدهم بانه سيوصلك سالماً إلى مكان ما فاطمئن اليه دون تردد ، ولكن اذا ما صادفك في الغد فانه لايتردد اطلاقاً من معاملتك معاملة قاسية اذا لزم الامر (٦٥).

نعتقد ان هذا التقويم موضوعي للشخصية الكُردية التي تحترم العهد طالما كان العهد قائماً اما اذا اصبح الطرفان في حل عنه يختلف السلوك اذا لزم الامر ونلاحظ امثلة عدة يسوقها الرحالة للتأكيد على موضوع الثقة عند الكُردي.

يقول باسيل نيكيتين لقد حدث ان وقع احد بكوات الأكراد اسيراً اثناء حملة حافظ باشا عام ١٨٣٧ فأخذ اعداؤه يعرضون عليه العروض المغرية ليكشف لهم عدد ومواقع الثوار الأكراد فكان يجيب عن هذه المغريات بقوله ان الزعيم الكُردي لايقبل اطلاقاً ان يصبح زعيماً لقوم آخرين. ولن تنفع معه اساليب التنكيل والترغيب جميعها لمدة يومين فما كان من الباشا الحقود الا ان رماه في قدر من الزيت المغلي فلبث محافظاً على رباطة جأشه حتى مات هذه الميتة (٦٨).

ان سون (في العقد الأول من القرن العشرين) يعطينا مثالاً آخر على ثقة الكُردي بنفسه وبزوجته وبالغريب وثقته بسلامة النية، وقد ذكرنا ذلك في فصل الضيافة الكُردية.

اما هاملتون (١٩٢٨) فعلى الرغم من وجود ما يبرر خلق الشكوك لديه في ان ينتقم الكُرد من الحكومة بشخصه فقد قصفت الطائرات البريطانية السليمانية وكذلك قرية علي اغا القريبة من موضع هاملتون ولكنه يقول لايسعني الا ان اتأمل مستغرباً شعوري بالاطمئنان التام في رقدتي هذه وانا وحيد دون حارس لاينتابني أيّما إحساس بخطر (١٣٠) .ويضيف هاملتون في موضع آخر من مذكراته ان الكُرد الذين يصفهم بانهم اشتهروا بعدم نسيان الاساءة دعوه لمشاركتهم عشاءهم واعطوه مفتاح الديوانخانه (المضيف) ليغلق الباب على نفسه أي ليطمئن أكثر... يضيف هاملتون ان من اشكال الثقة التي يمنحها المضيف إلى ضيفه هو ان الشيخ تأكد من ان بنادقهم إلى جانبهم قبل النوم وهم في ضيافته تأكيداً على حسن النية (١٩٦).

ومن باب منح الثقة من خلال خبرته ينصح الرائد المهندس الإنكليزي في كركوك بيري، هاملتون زائر كُردستان بالصدق إذ يقول، لاتقطع عهداً للكرد دون ان تنفذه واياك ان تلجأ إلى خداع الكُرد وسترى انهم سيصدقونك ولن يخدعوك (٤٦).

ان مآثر الثقة التي لاحظها الأجانب في كُردستان لدى الزعماء الكُرد والشعب لكثيرة وهنا يطيب لنا ان نذكر هذه القصة الحقيقية التي تترجم سمة الثقة عند الشيخ محمود الحفيد رحمه الله مع خصمه، والتي وردت في مذكرات هاملتون، فعندما انسحب الإنكليز من السليمانية قرروا ان يبقى كلارك الضابط السياسي في السليمانية كونه مشاوراً للشيخ محمود ولكن الشيخ محمود بدأ يتعامل مع كلارك كرهينة واستشاط كلارك غضباً في احدى المناقشات مع الشيخ محمود وقال له، اذن فانت تعد مستشارك رهينة واذا ما خيل لك ان القوة الجوية البريطانية ستحجم عن قصف السليمانية لكونك تحتفظ بي اسيراً فانك واهم. وعندما اصر هذا الاسير أو الرهينة على الرحيل من السليمانية وافق الشيخ محمود وسأله هل سيعود وما موعد عودته فاجابه كلارك... ربما اشهر قليلة متقدماً افواج الليفي والجيش العراقي فاحتوى الشيخ محمود هذا التهديد العلني واجابه، اما هكذا واما عندما تأتي سفيراً بعد ان اتوج ملكاً وفي كلتا الحالتين ستحل ضيفاً عزيزاً في داري الحقيرة وسيكون بيتك ومقتنياتك في حرز حريز طول غيابك فاقفل باب دارك واجلب لي المفتاح واعدك بانك ستجد كل شيء في موضعه كما تركته ومع انك ستكون على رأس الحملة التي ستجرد عليّ فثق ان رجالي سيخفضون بنادقهم ويتجاوزون عن حياة صديقي الكريم (١٥٩).

وفعلاً قصفت السليمانية وتقدمت قوات الليفي واحتلت السليمانية ويعترف كلارك الضابط السياسي، ان الشيخ محمود حافظ على وعده فلم يمس شيئاً من ممتلكاته على الرغم من المنظر البشع الذي كانت عليه السليمانية جراء الحرب يقول، لاتتصور كم دهشت عندما وجدت بيتي الذي سلم من القصف لم يعتبه احد وعندما سلمني الشيخ محمود المفتاح قال لي:

آمل انك ستجد كل شيء كما تركته لم تفقد منه حاجة وكان الامر كذلك فهذه هي اخلاق الشيخ محمود (١٦١).

وقد لاحظ الدكتور روس (١٨٣٣) عند زيارته لمدينة راوندوز في ايام الأمير كور باشا كما جاء في كتاب فريزر ان الابواب لاتغلق في الليل مطلقاً مما يدل على الامان وثقة المواطن بالآخرين (٢١).

لاشكّ ان الثقة ترتبط إرتباطاً وثيقاً بالصدق والإخلاص وأحياناً لايمكن التمييز بين هذه الاصناف من السمات في سلوك الفرد ويبدو ان هاملتون بسبب تعامله اليومي مع الكُرد في

مشروع شق طريق أربيل راوندوز قد تجمعت لديه إنطباعات واقعية يمكن ان يعول عليها كثيراً بسبب طول الفترة النسبية التي قضاها بينهم اولاً ولان علاقته بهم كانت علاقة عمل مرهق واجور ثانياً لذا اسفرت عن إنطباعات اقل ما يمكن ان يقال عنها انها ليست مجاملة لهؤلاء القوم، فهاملتون معجب بصدق الكُرد، عندما يدعي البعض من العمال بعدم استلامهم لاجورهم ويكتشف صدق ادعائهم وكذلك يبدي إعجابه بطريقة تقسيم كل جماعة من العمال المبلغ المستلم فقد كان هاملتون يضطر إلى دفع المبلغ لكل الجماعة بسبب عدم وجود كسور من الاوراق المالية فيقول تقوم كل جماعة بتقسيم المبلغ فيما بينهم بكل امانة ولم يجدهم يختلفون قط. وينتهي هاملتون في هذا المجال قائلاً لقد ثبت لي بالبرهان إخلاص هؤلاء وهو يشيد كثيراً بيقظة الحارس الكُردي (١١٨).

ويذكر خالفين ان الكاتب الأرمني ابوفيان الذي عاش طويلاً بين الكُرد، والواسع الاطلاع على نهج حياتهم قد اكد جازماً انه اذا حلف الكُردي بكلمة الشرف ان يحفظ اموال الغير أو اذا وعد ان يحفظ السر الذي اودع اليه فهو يفضل التضحية بحياته على ان يوافق على نقض الحلف (٢٥).

وعلى الرغم مما ذكر عن الثقة لابدّ ان نشير إلى ملاحظة سون ان الناس في مدينة السليمانية عموماً يميلون إلى توجيه الاسئلة للتعرف على هوية الزائر وقد اورد مثالاً على ذلك (٤٢) ولا نعتقد في هذا الميل ما يثير العجب فهو من الامور التي يمكن ان نلحظها في كل المدن لاسيّما اذا اخذنا عامل (الزمان) بنظر الإعتبار اي الزمن الذي عاش فيه سون في السليمانية (أوائل القرن العشرين) فهو يصف الكُردي بالرجولة والصراحة (١٤٢).

التأمل

يميل الكُردي إلى التأمل هكذا نجد إنطباعات كثرة من الرحالة والمستشرقين وقد ذكر مينورسكي ان للاكراد قابلية خارقة في النفوذ في اعماق كل شيء انهم ينظرون إلى كل وجه بإهتمام زائد وشك وفي كل مرة كان يزور فيها الأكراد تحصل عنده إنطباعات كأن عشرات الاعين تلتقط صورته (٦٨).

ويعلل مينورسكي (في العقد الثاني من القرن العشرين) هذه الصفة عند الكُرد ان الخطر الدائم خلق عند الأكراد عدم الثقة والشجاعة المتناهية والرقابة العالية المتطورة وهذه الأخيرة لاتنفك عن سمة التأمل بذاته قبل إتخاذ القرار.

ان دقة التأمل وعمقه يساعد على حفر الموقف في الذاكرة ومن هنا يأتي مثال مينورسكي

الذي يسرده في هذا المجال إذ يقول، عندما صادف ان ذهبت إلى مكان كنت فيه قبل ثلاث سنوات للمرة الأولى سألوني أين هي فرسك القديمة؟ ثم وصفوا بعض صفاتها وأشياء أخرى كنت قد نسيتها منذ زمان (٦٨).

الذكـــاء

يصف سون في كتابه وفي أكثر من موضع ما لمسه من ذكاء وفطنة في الشعب الكُردي فهو يذكر ان الكُرد شعبٌ ذو فطنة (٦١)، كما يذكر في موقع آخر انهم ذوو جمال رجولي وفطنة ومن نمط موفق (١٨٦). ويبلغ إعجاب سون اشده عندما يصفهم باذكى الشعوب طراً (٦٢) والحقيقة فان هذه الشهادة شهادة حري بالكُرد الإعتزاز بها لانها كما تبدو لنا ليست بمجاملة فسون في غنى عنها وهو لم يذكرها للكرد بل دوّنها في مذكراته والتي طبعت من بعده ومن يقرأ مذكرات سون يجد في هذه المذكرات المواقف التي ادهشت سون وهي تصرفات أو اسئلة أو عبارات ذكية لاحظها وسمعها سون في تعايشه مع الكُرد.

والكُردي كما يذكر باسيل نيكيتين يعد التعقل والذكاء احدى سمات الفخر فهو ليس كما يعتقد البعض، بل هو قروي ومتعقل وذكي ويسوق نيكيتين قصصاً جميلة توضح ذكاء الكُردي وفطنته مثل قصة (عيسى) وسواها من القصص (٧٠-٧٣).

اما توما بوا فيصف في عشرينات القرن العشرين الكُردي بانه مرح وحاضر البديهة وعاطفي جداً (٧٠).

ان بايندر يعد الذكاء صفة من ثلاث صفات للشعب الكُردي فالأكراد في نظره يتصفون بالجمال والقوة والذكاء لكن بايندر كان يتمنى لو ان أسباب المدنية بلغت كُردستان وصقلت الكُرد لانها حسب تقديره وإعجابه بذكائهم سيكونون افضل من جيرانهم الترك والفرس. وبايندر كان قد زار كُردستان في القرن التاسع عشر (١٨٨٧) (١١٠)*.

ويؤكد هاملتون بعد النظر الكُردي، فهم -أي الكُرد- من وجهة نظره ليسوا من الشعوب القصيرة النظر ويسوق هاملتون مثالاً على ذلك في تحوط الكُرد مسبقاً لما قد يحدث فتجدهم يختزنون الغذاء، ولديهم احتياطي دائم من المؤونة (١٦٤).

اما برانت فيدافع عن ذكاء الشعب الكُردي عند لقائه بامام جامع قصبة خيني في كُردستان تركيا إذ اتهم الأخير اهالي المنطقة بالغباء وهذا الامام (الذكي جداً) كان من اهالي دياربكر واسمه شريف بيك.

* أنظر شاكر خصباك- الأكراد ١٩٧٢، صفحة ٤٣٢.

والسبب الذي دعا رجل الدين هذا إلى تكوين إنطباعه لان اهالي المنطقة لم يستخدموا العربات لحد ذلك الوقت فاجابه برانت ان هذا التخلف يعود أساساً إلى طبيعة الحكم الذي يتولى الامور في البلاد وليس ناجماً عن غباء اهل المنطقة وعدم ذكائهم.

لقد اشار برانت بوضوح إلى تحطم كل دافع أو رغبة بالابداع عند اهل المنطقة بسبب الاستبداد الذي كان طاغياً في المنطقة ابان زيارته لكُردستان في النصف الأول من القرن التاسع عشر (٥٦).

اما مينورسكي فيؤكد ان الأكراد ليسوا بخاملين أو اغبياء لكنهم يفتقرون إلى الإمكانيات الكافية لتطوير ثقافتهم.

وطبيعي هذا ايضاً له علاقة وثيقة بطبيعة نظم الحكم التي توالت على المنطقة وضربت حصاراً على كل اشكال التنوير الذهني في كُردستان ولقرون طويلة من التسلط التركي في المنطقة.

يدلل مينورسكي على حيوية المفكر الكُردي من خلال حب الكُردي للطبيعة في كُردستان وتفاعله معها فلاتوجد صخرة أو واد أو شجرة منعزلة الا وكان لها اسم اياً كان أو مقترنة باسطورة (٦٩).

اما إدموندز (عشرينيات القرن العشرين) فقد ابدى دهشته في مذكراته عندما اركب كردياً في الطائرة فارشد الكُردي الطائرة في طيرانها بشكل حاذق حتى تم اسقاط الرسالة المراد اسقاطها، هو لم يركب طائرة من قبل وليس له خبرة سابقة بتعيين الإتجاهات أو انزال شيء ما من اعلى الجو من طائرة محلقة. والطريف ان هذا الكُردي رفض استبدال عمامته الكُردية بالخوذة الخاصة بالطيران لوقاية رأسه (٢١٢).

ونعود إلى باسيل نيكيتين ليقول لنا في موضع آخر من كتابه، يذكر ان الكُرد يسخرون كثيراً من البلهاء ويسوق قصصاً عن سخرية الكُرد من بلاهة الآخرين.

لكن للاسف الشديد نجد كيرزن مثلاً في كتابه فارس والقضية الفارسية يصف الكُرد بالبلاهة. ان حالة الامية المتفشية بشكل واسع في المجتمع الكُردي في القرن التاسع عشر كانت للاسف الشديد (تستغل) وكأنها عامل اصيل في عملية تقويم المجتمع الكُردي عقلياً، وهذا خطأ علمي إذ لايجوز للمتعلم ان يجعل نفسه مقياساً لنباهة أو ثقافة شخص جاهل.

ان كيرزن يقول نصاً كما جاء في كتاب خالفين، انهم الشعب الجاهل جداً والبليد جداً الذي لم يعرف التعليم والمدرسة والكتب. شعب لايوجد منه واحد من عشرة الاف من يحسن القراءة. وهو شعب بلاتاريخ ولا ادب (٦)، والمؤسف هنا ان كيرزن لايميز بين الامية والبلاهة من جهة

ثم لايذكر لنا لماذا تكونت هذه النسبة العالية جداً من الامية بين الكُرد من جهة ثانية؟ هل هم الذين اختاروا ان يكونوا أميين؟ هل فتحت للكرد مدارس وامتنعوا من إرسال ابنائهم لها؟

لانعتقد ان كيرزن (بليد) إلى درجة لايستطيع الإجابة على سؤالنا هذا.

التعلم والخبرة والثقافة

عندما نتحدث عن التعلم والخبرة في باب صفات الكُرد انما نتحدث عن مسألتين لابدّ من التذكرة بهما أولهما الحديث عن الإستعداد للتعلم وثانيهما ان المقصود بالتعلم هنا ليس التربية والتعليم المدرسيين حصراً.

بدءاً لابدّ من الاشارة إلى ان الكُردي ملزم ان يتعلم منذ نعومة اظافره عن طريق التجربة القاسية كيف يحافظ على بقائه، هذا ما يشير اليه سون (١٨٥).

ان الحياة الكُردية حياة صعبة شاقة جداً ذلك ان البيئة الطبيعية بالرغم من جمالها لكن التعامل معها ليس بالامر السهل فضلاً عن كل عوامل القهر واستلاب الحرية التي عانى منها الشعب الكُردي عبر تاريخ طويل ومرير ألجأته دوماً لان يعيش حياة دامية وتكالبت عليه القوى من قريب ومن بعيد طوال تاريخه فغدا مشروعاً دائماً للدفاع عن النفس وعركته مآسي الحياة حتى كاد ان يصبح مقاتلاً بالفطرة وكان الطفل عبر التاريخ الطويل يفتح عينه ليشهد حياة شاقة تفرضها طبيعة البيئة مثلما يشهد ويلات تلم باهله وبه فيتعلم ان الحياة دار شقاء ليس الا وما عليه الا ان يختبرها كي يبقى.

لقد لاحظ هاملتون ان الكُرد لديهم روح التشبث والرغبة في التعلم فهم لايأخذون الامور على عواهنها انما يتشبثون من اجل تعلم الخبرة التي لم يخبروها (١٠٩).

ان ما تقدم يجعلنا نجزم ان الإستعداد للتعلم عند الكُرد عال، لكن الكُرد لأسباب سياسية معروفة عانوا لقرون طويلة في حياتهم حرماناً ثقافياً وتعليمياً مقصوداً وهذا ما شخصه مينورسكي إذ يذكر ان الأكراد ليسوا بخاملين ولا اغبياء ولكن لاتوجد إمكانيات كافية لتطوير الثقافة والمعارف بينهم.

وفعلاً اثبتت الوقائع ان الكُرد عندما تتوفر لهم فرصة التعلم فانهم يبلون بلاء حسناً، لقد تخرج مئات الالاف من الطلبة الكُرد من المدراس والكليات في كُردستان عندما تسنت لهم فرصة الدراسة، حتى عندما كانوا يدرسون بغير لغتهم الكُردية فان نتائجهم في الامتحانات الوزارية أو في كليات الجامعة لم تكن اقل ابداً من زملائهم ممن درسوا بلغتهم العربية.

ان سون ومن خلال تعامله الطويل مع الكُردي يؤكد ان الشعب الكُردي موهوب بالفطرة

(١٧٧).

اما سافرستيان فيرى ان المتعلمين الكُرد اثبتوا جدارتهم في كل ميادين الحياة وقد لاحظ ايضاً ميل الكُرد للتعامل مع الالات والسيطرة على المشاكل (٩٤).

تتفق نظرة سون ايضاً مع نظرة سافرستيان إذ يرى ان الأكراد من أمهر طوائف العمال وأكثرهم بعثاً على الطمأنينة والرضى ومنهم من بلغ في ميدان المهارة والعمل التقني الآلي شأواً عظيماً وهذا النمط الهادئ من العمال جاد في العمل دؤوب وهم ذوو حماس كبير إلى الأشياء المتصلة بالهندسة جميعاً وان الغريزة الأدبية كامنة فيهم (١٧٧).

ويأتي مينورسكي بامثلة حية وميدانية على سرعة التعلم عند الكُرد والمستوى النوعي العالي في اكتشاف المهارات لاسيّما اللغوية فيقول يجب ان لا ننسى بان هناك أناساً استطاعوا ان يظهروا نجاحات سريعة في التعلم، انهم لغويون جيدون وأكثرهم يتكلم باللغة الكُردية أو الفارسية ولم ينس الضباط الأكراد الذين يعملون سنوات كثيرة في زوايا بعيدة على الحدود اللغة الفرنسية التي تعلموها في المدرسة.

كان اوسكارمان سائحاً في ساوبلاغ (مهاباد) رافقه الميرزا جواد وقد استطاع هذا ان يتكلم الالمانية بسرعة ثم سافر إلى برلين وتمكن ان يحصل على المال من المحاضرات التي كان يلقيها باللغة الالمانية عن كُردستان ومختلف الجماعات والمنظمات.

وكذلك يذكر مينورسكي امثلة عن تجار كرد كانوا يتكلمون الروسية العامية بطلاقة. اما في تركيا (القسطنطينية) فان المثقفين الكُرد يتكلمون التركية في مستوى جماعاتهم من المثقفين الأتراك (٦٨).

الصفات الجسمية والملامح

يذكر ميلنكن (١٨٧٠) ان العرق الكُردي، رجالاً ونساءاً يتصفون بوسامة مميزة وهم في هذا المجال يفوقون الترك - التاتاريين أو حتى اولئك الذين يسكنون القسطنطينية. انهم طوال القامة، يتمتعون ببنية وعضلات قوية جداً. والغريب في الكُرد، هو التباين في ملامح الوجه فنجد فيهم من ذوي البشرة السمراء والعيون السود، كما تجد فيهم من ذوي الشعر الاشقر والعيون الزرق، وكذلك يشيع بينهم ذوو الشعر والعيون الكستنائية، (أي اللون البني الفاتح) فضلاً عما يميزهم بتمتعهم بحدة النظر وبنظرات نارية (٢٤٤-٥).

اما والتر هاريز (١٨٩٦) فيصف بشرة الكُرد بانها ليست أكثر سمرة من سكان جنوب اوربا لا بل اقل سمرة، اما الحاجبان والرموش فعلى الاغلب سوداء والانف نسري جميل والفم

جميل التكوين.

الوجه طويل وبيضوي، اما القامة المتوسطة فهي السمة الغالبة بينهم. انهم يحلقون اللحى ولكنهم يحتفظون بالشارب وما من صعوبة في تهذيبه بالمشط وبشيء من الشمع.

اما شعر الرأس فيحلق تماماً ما عدا الجانبين (الفودين) على الرغم من ان هذا المتبقي غالباً لايرى، ويعتمد ذلك على نوع وطريقة لف الرأس واناقة أو تقليعة غطاء الرأس، وبشكل عام فان الكُرد في الأصقاع العالية يمتلكون ملامح جميلة ونقية، وان ومضات عيونهم السوداء وحركاتهم الرشيقة توحي بالجرأة والحيوية (١٨٧-٨).

والحقيقة فاننا نجد أنواعاً مختلفة من اشكال حلاقة الرأس وليس الشكل الذي لاحظ هاريس فهناك العكس مثلاً، أي حلاقة محيط الرأس وترك طرة من الشعر تتدلى من اعلى الرأس، كذلك نجد الكثير من القبائل تحلق شعر الرأس برمته.

اما بالنسبة للون البشرة والعيون والشعر فان معظم المصادر تشير ومعظم الرحالة ممن سافروا عبر كُردستان تركيا إلى كُردستان العراق ومن ثم كُردستان إيران أو بالعكس لاحظوا انهم كلما اتجهوا نحو الشمال والشمال الغربي من كُردستان فان نسبة الأكراد ممن تكون بشرتهم أكثر بياضاً وشقر الشعور وزرق العيون تزيد تدريجياً.

ان فريزر بدوره درس الصفات الجسمية والملامح الكُردية، إذ يذكر ان الأكراد فعالون واقوياء ولايختلفون الا قليلاً من حيث الأساس عن جيرانهم الإيرانيين (٥٩).

هنا يجب ان لا ننسى ان رحلة فريزر بدأت من إيران بإتجاه السليمانية ثم بغداد أي كانت رحلته في جنوب كُردستان ومن هنا يجد شبهاً بين الكُرد وجيرانهم الإيرانيين والمسألة هنا جغرافية بحتة وليست عرقية من وجهة نظرنا.

لكن فريزر يميز ملامح الكُرد بالرغم من الشبه الذي يذكره، فسمات الوجه الكُردي، التي لها شكلها الخاص وبصورة تلفت النظر من حيث بروز عظام الانف وتقهقر الفم والذقن، الامر الذي يسبغ على الشكل العام شكلاً نصف دائري، اما العيون فيصفها فريزر بانها متأصلة بعمق وهي غامقة اللون سريعة ومدركة. ويكون الحاجبان كثّين وواضحين ولكنهما يميلان قليلاً إلى الوراء، اما شكل التقاطيع العام فهو أكثر دقة ونحافة منه عند الإيرانيين الذين يكونون في العادة اقوى بنية من الأكراد، ويؤكد انه من النادر رؤية الانف الافطس في كُردستان، ويكاد يكون الفم كامل التكوين، باسنان لطيفة دقيقة، وتكون الايدي والاصابع صغيرة ونحيفة، ويضيف ان الشكل الكُردي فيه رشاقة وانسجام، الامر الذي يجعل منهم امة وسيمة مليحة ما بين أمم العالم الأخرى.

ولاينسى فريزر وصف النساء إذ يذكر في ضوء القدر - الذي امكنه التوصل اليه من ملاحظة - انهن حينما يكن شابات، جميلات للغاية، لكنهن حينما يتقدمن في السن أو حتى عندما يصلن إلى دور النضج فان بروز التقاطيع الحاد الذي يتميزن به مع الرجال يبتعد بهن إبتعاداً اكيداً عن حد الجمال وسرعان ما يبدو عليهن الكبر والذبول (٥٩).

اما ريج (١٨٢٠) فيقول، انه لم يشاهد مطلقاً اناساً ذوي اجسام قوية صحيحة من الجنسين النساء والرجال كما شاهد ذلك في كُردستان فعلى الرغم من سوء الحالة الجوية، يذكر ان الأكراد بوجه عام قوم اقوياء اصحاء، والاطفال منهم ذوو بنية لها محاسنها وجمالها (١٢٧-٦).

اما هاملتون (نهايات عشرينات القرن العشرين) فيذكر ان اجسام الكُرد متينة بشكل مدهش ولكن الاوبئة تحصد ارواحهم حصداً.

ويبدو ان هاملتون كان يميز بين القوة الجسمية للإنسان الكُردي ومقاومته لقسوة الطبيعة من جهة، ومسألة الاوبئة التي لاتعرف المقاومة الجسدية، فهو يذكر مدى التحمل الجسدي للكرد إذ يقول: معظمهم -أي العمال الذين كانوا يشقون طريقاً عبر الجبال- لايملك معطفاً، أو بدلة ثانية يستبدل بها بدلته المبللة، وأحياناً لايجدون ناراً لتدفئة انفسهم وتجفيف ثيابهم وبعضهم لايملك لحافاً أو غطاء ومع ذلك وحسب هاملتون الذي يقول، لست اذكر عاملاً واحداً اعتلت صحته بسبب تعرضه للبرد (٢١٢).

اما إدموندز (في بدء عشرينيات القرن العشرين) يصف زواره من الكُرد بانهم شديدو العضل متينو الالواح (٢١٣).

اما هوبارد (١٩١٦) فقد رأى الكُرد لأول مرة في بغداد كما يذكر. ولم يكن يملك صورة عنهم، أو بالاحرى ان الصورة التي كانت في ذهنه عنهم ناقضت تماماً الصورة الحقيقية لشكل الكُردي، فقد كان يعتقد انهم ذوو بشرة داكنة، لكنه وجد الكثير منهم على غير ذلك ومنهم زرق العيون ولهم شعر اشقر وملامح نقية ومتناسقة، ومبدئياً فهم من نوع الانكلو سكسون وتتقاطع ملامحهم مع الملامح الشرقية المزدحمة حولهم. هؤلاء الأصدقاء الهائلون هم الحمالون الكُرد، ويعطي هوبارد التسمية البغدادية آنذاك وقد كتبها بالحروف المائلة الشيالون -Shayy als أو المستخدمون Porters، هذا النوع الجليل من الجنس البشري الممتلك لاكتاف عريضة وسيقان قوية من نمط هياكل رودن Rodin*. لقد كان اول نموذج من عرقهم اراه ولم يكونوا مطابقين لتصوري السابق عنهم (١٢٨).

* رودن Rodin: نحات فرنسي للتماثيل، ومن كبار معلمي الفن (١٧٨٤-١٨٥٥).

وعندما يتجه هوبارد نحو كُردستان ويرى الكُرد في موطنهم، لايمتلك إلا أن يقول عن الشخص الكُردي نشاهده بين اصالة جباله في وطنه، انه بالتأكيد مخلوق جميل، فالرجال هنا اشكالهم جذابة (١٨٥).

اما بورتر، فيذكر انه لاحظ ملامح الناس الكُرد في المناطق الجبلية تبدو غير متغيرة مثلما صخورهم ثابتة راسخة (٤٥٧).

ان سون يبدي إعجاباً كبيراً بالقوام الكُردي، إذ يذكر لو حكم على الأكراد بعدّهم نماذج الشكل البشري لما كان هناك على وجه الاحتمال من معيار أسمى من معيارهم وأبعد، فالشمالي فارع القامة، نحيف -ولايعرف الإنحناء بين الأكراد إطلاقاً- هذا وان الانف لطويل ودقيق، وقد يكون معقوفاً قليلاً، اما الفم فصغير، والوجه بيضوي وطويل، والرجال تنمي الشارب الطويل وتحلق اللحية، والعيون نفاذة ضارية، وبينهم كثير من ذوي الشعر الاصفر والعيون الزرق البراقة، ولو وضع الطفل الكُردي من هذا النمط، بين جمع من الاطفال الإنكليز لما تميز من بينهم، ذلك ان جلده ابيض، وفي الجنوب يكون الوجه، في الأحيان، اوسع قليلاً، ولو اخذ اربعون رجلاً من ابناء القبائل الجنوبية، لا على التعيين اعتباطاً، لوجد ان تسعة منهم يقل طولهم عن تسعة اقدام، وذلك على الرغم من ان بين بعض القبائل يكون معدل الطول: ٥ اقدام و٩ انجات. ان الخطو عندهم لطويل بطيء، وتحمل المشاق عظيم، ويظهرون على ما هم عليه حقاً، باعتدادهم (ميديي)* اليوم، ويستأهلون، لو إتحدوا حسب، ان يغدو مرة أخرى أمة عسكرية عظيمة، لها من طبعها الصلب الرصين، ما يمكنها من الأرساس الأدون شأناً التي تعيش بين ظهرانيهم إعتيادياً.

ويضيف سون انه رأى بين الأكراد كثيراً من الرجال الذين يستطيع احدهم الظهور بمظهر الـ(نورسمن Norsman)، الذي له شعر اصفر يتطاير وشاربان طويلان متهدلان وعينان زرقاوان وجلد لطيف، كل اولئك من البراهين المقنعة فضلاً عن لغتهم التي تجعل إدموندز يقتنع ان الـ(انكلوسكسون) والأكراد من ارومة واحدة (١٩١).

اننا نعتقد ان بالاضافة إلى العامل الجغرافي الذي يجعل الأكراد الجنوبيين أميَل إلى السمرة وسواد العيون بالمقارنة مع الشماليين فان عاملاً آخر لعب دوراً كبيراً في تغيير السحنة الكُردية، إذ نرى ان دخول الكُرد الاسلام كان سبباً في فسح المجال لان يسكن عدد غير قليل من العرب في الأراضي السهلية من كُردستان، وفي إعتقادنا ان النسبة الاغلب من الشعب الكُردي تحديداً -وليس الفارسي- كانوا يمتلكون بشرة بيضاء وعيوناً زرقاء، لكن

* نسبة الى النظرية التي تقول أن الميديين أجداد الكُرد الحاليين.

دخول العرب إلى المنطقة والاعتداء الذي حصل واستباحة القرى والسكن القسري في المنطقة كل ذلك ادى إلى تغير السحنة إلى حد ما، ذلك ان من الناحية الوراثية فان اللون الاسود أي سواد العيون مثلاً أو البشرة ولاسيّما اذا كان سواداً نقياً أي ما يرمز له بـ BB. وحتى اذا كان هجيناً أسوداً Bb لابدّ من ان تلعب الصبغة السوداء دوراً واسعاً سواء في لون العيون أو لون البشرة لان اللون الاسود في المفهوم الجيني هو صفة متغلبة ويحاول كل من اللون الابيض في البشرة واللون الازرق في العينين التعبير عن وجودهما ولكن هذا التعبير يأتي في المجموع العام بنسب اقل من نسبة الصفات المتغلبة وهذه مسألة يعرفها علماء أو دارسو علم الوراثة جيداً. لذا نعتقد ان للفتوحات الاسلامية دورها في الامتزاج مع كثير من الاقوام، مثلما حدث في فتح اسبانيا (الاندلس) والمكوث فيها طويلاً (الماء والخضراء والوجه الحسن) مما جعل عدداً غير قليل من الاسبان يمتلكون السحنة العربية على الرغم من عودتهم الى ديانتهم المسيحية ولغتهم وقوميتهم الاسبانية.

اما هنري فيلد ففي دراسته الانثروبولوجية في الشرق الاوسط والتي شملت كُردستان فانه يذكر النتائج الجسمية للعينات الثلاث المأخوذة في عام ١٩٢٦ من زاخو وروانduz والسليمانية. ان الكُردي متوسط القامة ولكن جذعه طويل يقابل ذلك قصر في الساقين، اما الجبهة فعريضة ومحيط الرأس واسع وان نسبة ٣٧-٤٠٪ منهم يعانون من انطباق في الجمجمة*، اما الجزء العلوي من الوجه وطول الوجه بشكل عام فيتراوح بين الطويل المتوسط والطويل، اما الانف فمتوسط الطول والعرض وينتهي بارنبة الانف عادة (٦١).

اما هَيْ (١٩١٨-١٩٢٠)، فقد اثرت فيه الملامح الكُردية فهو يرى فيهم ملامح النسر الوسيمة، وهنا لابد من ان نذكر ان هَيْ عاش في منطقة أربيل، ووصفه جاء من مشاهدته المباشرة للفلاحين في منطقة من مناطق كُردستان وليس كُردستان بأسرها، وعلى كل فإن هَيْ يصف الفلاح الكُردي على العموم بان طوله لايزيد على ٥ أقدام و٦ إنجات الا ما ندر (٦٠).

ان هذا الوصف لـ هَيْ يختلف عن المعدل الذي ذكره سون بـ ٣ إنجات ونعتقد ان السبب هو إختلاف المناطق التي جرى فيها القياس، والحقيقة لم نعثر على دراسة اخذت عينات من كل ارجاء كُردستان لاستخراج الاوساط الحسابية للقياسات الجسمية. ربما سيجري احدهم ذلك في قادم الايام.

ونعود إلى هَيْ في وصفه الملامح الكُردية، فالكُردي على ما يذكر، يرسل اللحية ولكنه

* في رأينا هذا الإنطباق يحدث في الجهة الخلفية من الجمجمة، عند الكُرد، بسبب طول مكوث الطفل، في المرحلة المبكرة من الطفولة، في المهد.

في العادة حليق الرأس فيما خلا حافة صغيرة، ان له وجهاً آرياً نمطياً والشعر اسود اللون عادة والبشرة حنطية فاتحة هي على غرار بشرة الايطاليين أو الاسبان أو افتح منها ويمكن ان ترى في الكُرد شعراً أحمر فاتح وعينين زرقاوين ووجهاً فيه نمش (٦٠).

ويبدو ان المناطق أو القبائل التي كان هَيْ قد زارها يرسل الكُرد فيها لحاهم، واننا نجد مثل هذه الظاهرة لدى بعض القبائل التي يكون فيها رئيس القبيلة رئيساً روحياً فضلاً عن كونه الرئيس القبلي الدنيوي ايضاً، ولكن لايمكن ان نعمم ملاحظة هَيْ على كل الكُرد، بل العكس هو الصحيح فالنسبة العليا جداً من الكُرد يحلقون لحاهم ويحتفظون بالشاربين مرسلة أو مهذبة.

اما شميدت (في أوائل الستينات) فقد وصف الكُرد المئة الذين صافحهم ان منظرهم كان مهيباً (٥٢) بينما يذكر ماليبارد ان ملامحهم تشعره بالبشر والسلام (٢١٨).

القسوة والقوة

لاشكّ ان الحياة في كُردستان ليست سهلة وتتطلب ان يكون الفرد قوياً قاسياً عندما يتطلب الموقف ذلك. ان القوة الجسدية ترتبط حتماً بالصحة الجيدة، وقد وجدنا كثيراً من المستشرقين والرحالة ممن زاروا كُردستان يشيدون بالصحة العامة للاكراد فهذا سافرستيان يذكر ان الكُرد يتمتعون بصحة وبنية جسدية جيدتين (٩٤).

اما بايندر، الرحالة الفرنسي، والذي مر ذكره في موضوع (الذكاء)، فقد وصف الكُرد بالجمال والقوة والذكاء، مع امنية للكرد ان تصلهم يد الحضارة فيتفوقون على جيرانهم المحيطين بهم (١١٠).

ينظر هاملتون بإعجاب إلى الكُرد الذين عايشهم وعايشوه في العمل المضني الشاق في فتح طريق راوندوز-أربيل فعندما دعا عماله إلى مأدبة بمناسبة تثبيت جسر قرب راوندوز يذكر ان مأدبة لالف من الرجال ليست بالامر البسيط على انهم يستأهلونها حقاً لانهم قهروا مضيق علي بك* (٢١٥) وهو في موضع آخر من مذكراته يعدد صفات الكُرد فيبدأ بالقوة الفردية ثم الأنفة.

ويذكر سون إعجابه بالقوة البدنية للعتالين الكُرد الذين حملوا بضائعهم في دياربكر وكيف كان الحمال المحمل بكثير من البضاعة يسبقهم في مشيه، إذ يقول لقد سبقنا الحمال بالقوة المشهورة لدى ابناء جلدته بسيره الدائب (٩٧).

* مضيق عملاق قرب راوندوز في كردستان العراق.